دراسة مقارنة بين قصيدتين في رثاء الولد

تنوعت أغراض الشعر العربي القديم ، ما بين مدح وفخر وهجاء ورثاء ، ويعدّ الرثاء من أهم أغراض الشعر ،وقد برع فيه العرب ؛إذ قيل للأعرابي : ما بال مراثيكم أصدق ما تقولون ؟ قال : لأننا نقول وأكبادنا تتقطع.

فقدُ القريب أو الحبيب أمر محزن ، فكيف إن كان المفقود ابنا ، فلذة من فلذات الأكباد ، فقد قيل للأعرابي ما تقول في موت الولد؟ قال : صدع في الفؤاد لا ينجبر أبدا.

نتناول في هذا المقال موازنة بين نصين في الرثاء وتحديدا في رثاء الولد ، النص الأول لابن الرومي الشاعر العباسي المعروف ، والنص الثاني للشاعر السعودي محمد عمر توفيق.

تباينت رؤية كلا الشاعرين لفقد الولد ، فكان القبول و الرضا عند محمد عمر توفيق ؛ إذ يراه قضاء وقدرا مسطرا منذ الأزل :

تاريخها المسطور من أحرف قد مزجت من كل حيّ بدم

وعند ابن الرومي يظهر الجزع والحزن والتسخط :

توخى حمام الموت أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد

يخاطب ابن الرومي –في قصيدته -عينيه:

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي فجودا فقد أودى نظيركما عندي

ويرى أن البكاء يريحه قليلا ، لكنه لا يجدي ،ويشبّه ابنه بعينيه، فهو نظيرهما ، لكن محمد عمر توفيق يخاطب ابنه المتوفى:

أحسنت يا بني فالحياة التي فارقتها موّارة بالألم

فكرة ابن الرومي أن الموت أدى إلى شدة معاناته ؛ لأنه طوى ابنه ، وجعله بعيدا رغم قربه:

طواه الردى عني فأضحى مزاره بعيدا على قرب قريبا على بعد

ويرى أن المنايا أنجزت وعيدها بأخذ ابنه ، أما الآمال فقد أخلفت الوعد ببقاء ابنه!!!

أما محمد عمر توفيق؛ فيرى أن الموت راحة لابنه ، رغم أنه معاناة للأب ، ويرى أن الموت

خير لابنه ؛ لأنه رحمة عليه ، لأنه ما ظلم وما جنى:

فإنه الرحمة في عقله على وليد ما جنى وما ظلم

برز الحزن بشدة لدى ابن الرومي ، ووصل به إلى درجة العجب ، كيف تحمّل قلبه ذلك الحزن:

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنه أقسى من الحجر الصلد

أما محمد عمر توفيق ، فقد نظر نظرة واقعية ؛إذ وجد في الموت راحة لابنه.

أكثرَ ابن الرومي من ذكر الموت ومرادفاته : المنايا ، حمام الموت ، الرّدى، أما محمد عمر توفيق فقد ذكر : الآجال ، الموت.

اشترك الشاعران في إيراد كلمة معبّرة ، وهي "طواه" عند ابن الرومي ، و" طوتك" عند محمد عمر توفيق.

الصور الشعرية كثيرة في النصين ، وهي أكثر لدى ابن الرومي ، ومن أمثلة ذلك: تشبيهه لابنه بعينيه ، والاستعارة في "طواه الردى" و"أنجزت فيه المنايا وعيدها"

أما من نماذج الصور لدى محمد عمر توفيق تشبيهه الموت بالرحمة ، والاستعارة في " طوتك" ، والتشبيه في البيت الرابع:

ما أسعد السالم منها إذا مرّ مرّ بها كالطيف أو كالنغم

ورد الطباق لدى ابن الرومي في "بعيدا ، قريبا" ، " بُعد ، قُرب" ، " أنجزت ،خلفت"، "وعيدها ، وعدها " ؛ مما أدى إلى إبراز المعنى ووضوحه ،

كما ورد الجناس "تساقطُ ، تساقطَ."

أما الطباق عند محمد عمر ،فقد حشده في البيت الأخير :"رضا ، قلى" ، "وصل ، هجر " ،"لا ، نعم."

كثر استخدام الأسلوب الخبري ،وكان ذلك مناسبا ؛ لأنه يخبر عن المشاعر وعاطفة الحزن لفقد الولد ، ومن نماذج الخبر عند ابن الرومي:" ألحّ عليه النزف"، "توخى حمام

الموت""طـواه الـردى..."

ومن نماذج الأسلوب الخبري لدى محمد عمر توفيق: "وودت لو أسـرعت" ، "لـكنهـا الآجـال موصدة"، "فإنه الرحمة " ، وأتـى الإنشـاء غير الطلبي "التعجب" في قولـه : مـا أسـعد السـالم!

مما سبق نجد أنهما نصان تناولا غرضا واحدا، وهو رثاء الولد ، اختلفت رؤيتهمـا لفقـد الولد ، ما بين جزع وحزن وتسخط لـدى ابـن الرومـي ،وقبـول ورضـا لـدى محمـد عمـر توفيـق الذي يرى أن ابنه انتقل من دار موّارة بالألم - كما قال -إلى دار البقاء والخلود.